فصل من كتاب "البديل"

# تحدّي الشبيبة ..

بقلم روجيه غارودي

هذا الكتاب (*) يتناول المستقبل . المستقبل المباشر ، اي ذاك الذي في سبيله آتى الانبثاق وذاك الذي يمثل البعد الرئيسي للحاضر. وهو يتناول المستقبل الابعد ايضا ، اي ذاك الذي يتيح لنا انْنستبق الحاضر وان نفهمه وان نسلط الضوء على قراراتنا لكي نبدع ما هو مقبل ونبينه متكاتفين .

ان المستقبل لا وجود له على طريقة اميركا قبل كريستوف كولومبوس . فهناك امكانية لاكثر من مستقبل ، ونحن مسؤولون عن كل ما سيكون . وعليه فان التفكير بصدد المستقبل ليس محض تكهن : وانما غرضه ان يساعدنا ، من خلال رسم الممكنات ، على التكهن بنتائج كل قرار من قراراتنا الراهنة حتى يوحي الينا بالمداخلات القمينة ، بان تحقق ما هو مرغوب فيه من تلك الممكنات .

واذا لم يكن المستقبل بالضرورة على امتداد هواجسنا ومخاوفنا ، تبعا لانحرافات الحاضر المفجعة ( اي على فرض اننا لم نبادر الى العمل ) ، فانه ليس بالضرورة ايضا على امتداد رغباتنا واحلامنا اذا لم نأخذ بعين الاعتبار ، في مشاريعنا ، القوى الموجودة والشروط العينية لتحركها والاهداف المحددة التي يمكن توجيه تلك القوى للتلاقي عندها .

لقد بدأ المستقبل من الآن . والشبيبة تذكرنا بذلك يوميا بما يصدر عنها من افعال رفض وغضب . والتساؤل بصدد المستقبل قد يعني قبل كل شيء سؤال هذه الشبيبة .

ان الشبيبة تتدفق على هذه الارض القديمة تدفق امواج البحر الهائج . ان خمسة وعشرين مليونا من الفرنسيين ، اي نصف شعبنا، لم يبلغوا الثلاثين او حتى ما دون الثلاثين من العمر . وفي الولايات المتحدة تقل اعمار نصف السكان عن الخامسة والعشرين . ونصف الصينيين تقل اعمارهم عن الحادية والعشرين . ومليارات من اصل اقل من اربعة مليارات من الرجال والنساء الذين هم على قيد الحياة في العالم قد ولدوا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . وفي كل يوم تستضيف المعمورة مئة وخمسين الف قاطن جديد .

وفي كل مكان من العالم تبادر الشبيبة ، التي تؤلف نصف سكانه الى الانشقاق او حتى الى تأسيس مجتمع مضاد بقوانينه اللامكتوبة واعرافه واختياراته المغايرة لقوانين النظام المستتب واعرافه واختياراته .

وعالمية قلق الشبيبة تحظر علينا سلفا الاجوبة الجزئية التي توحي بها الينا ميولنا السياسية ،كأن نقول : انه تمرد على تناقضات الرأسمالية ! تمرد على البيروقراطية والاستبداد الاشتراكي ! انفجار للنزعة القومية ولكراهية الاجانب في العالم الثالث !

ذلك ان الشبيبة ثائرة في كل مكان : هناك حيث تركت لها فرصتها على يد الثورة الثقافية في الصين ، وهنا حيث لم تترك لها فرصتها سواء افي فرنسا ام في غيرها من البلدان عام ١٩٦٨.

وسواء أأسفنا ام اغتبطنا فان هذا الموقف يطرح مشكلة اساسية : مشكلة وضع « فيمنا » ومؤسساتنا في قفص الاتهام على نحو جذري . ونحن لا نستطيع ان نتملص من عملية الاستفهام والاستجواب هذه .

وليس القصد هنا ان نكيل المديح الديماغوجي للشبيبة او ان نصدر بحقها قرار اتهام ، وانما ان نحاول فك لغزها . وقبل كل شيء باستماعنا اليها وبمحاولتنا ان نفهم .

ان الشبيبة تواجه اليوم ردود فعل شبيهة بتلك التي اثارتها الطبقة العاملة في مطلع القرن التاسع عشر : فقد كان من الناس من لا يرى فيها سوى خطر داهم : « البرابرة يعسكرون داخل اسوار حواضرنا بالذات ! » . ولم تراود النفوس يومئذ غير فكرة القمع والمجازر التي دفعت تاريخ اوروبا باسره وانتي امكن للحركة العاملة ان تنمو وتتعاظم رغما عنها وبقوة لا تقهر او تصد . وهناك بالمقابل من استشف في الانتفاضات الشائهة صعود ثورة كبرى . ومنذ عام ١٩٦٨ اثار كتاب نموذجي افكاري حول الشبيبة : انه كتاب انجلز «وضع الطبقة العاملة في انكلترا » المنشور عام ١٨٤٥ . ففي اي موضع من هذا الكتاب لا يضفي انجلز صفة مالية على بدائيي التمرد . وانما كتابه شهادة على ما خلفه التصنيع من عالم « لا يمكن الا لعرق فاقد لانسانيته ، منل ، منحط الى مستوى حيواني ، سواء أمن وجهة النظر الفكرية ام من وجهة النظر الاخلاقية ، مريض جسمانيا ، ان يجد فيه مستقرا له » . وقد وصف انجلز المزاحمة الوحشية بين العمال للفوز بعمل وبأجر ، والتسول ، والادمانعلى الكحول الذي كف عن ان يكون رذيلة ليمسي « ظاهرة طبيعية » ، والبغاء الناجم عن عبودية المصنع والمقبول من الجميع حتى انه كان يسمى من قبيل السخرية « الساعة الثانية عشرة من العمل » . ولم

---

(*) الفصل الاول من كتاب « البديل » لروجيه غارودي الذي يصدر هذا الشهر عن دار الاداب . وهو من ترجمة جورج طرابيشي .

يكن هناك من خيار الا بين الانحطاط او التمرد . ولقد كانت الاشكال الاولى من هذا التمرد اشدها عقما : تحطيم الآلات واغتيال بني الانسان . بيد ان انجلز عرف كيف يستشف في هذه الفوضى الاولية الخطوط البارزة للحركة العاملة المستقبلة التي صعدت بعد خمسة وعشرين عاما ، مع عامية باريس ، « لاقتحام السماء ».

وحين احتك الكهنة ـ العمال (1) ، بعد قرن من انجلز ، بهذه الحركة العاملة ، تعرفوا فيها ، باحترام وتواضع ، قوة من اعظم القوى الروحية في عصرنا ، قوة « تناضل في سبيل علاقات انسانية جديدة ، وفي سبيل تغيير شروط الحياة والكائنات ، وفي سبيل دفق جديد للانسانية » .

كانت تلك هي نظرة انجلز امام عالم في طريقه الى الولادة . وتلك هي ايضا نظرة الايمان المسيحي حين يرى في ابن الانسان المصلوب وعدا اكيدا لا يقهر بالبعث .

هذه النظرية هي وحدها التي تتيح لنا ان نفهم ما هو في سبيله الى الموت وما هو في سبيله الى الولادة في تلك الشبيبة وبواسطتها .

وما دامت حكمتنا الصلفة قد افلست افلاسا مدويا ، فلنحاول ان نفهم جنون الشبيبة الالهي .

* * *

لقد اتيح لي ، بحكم اسفاري ومهنتي وعملي الحزبي ، امتياز اللقاء بهذه الشبيبة في مختلف ارجاء المعمورة : من جامعة موسكو الى مخيمات الطلبة الاميركيين في بركلي او ستانفورد ، والجلوس في سان فرنسيسكو جنبا الى جنب مع الهيبيين ، والاتصال ب « الفهود السود » ، والنزول ضيفا على شيوعي بلغراد الشبان كما على طلبة جامعات اوستراليا وكندا انكبيرة ، والاختلاط بشبيبة برلين او ميلانو كما بشبيبة نيودلهي او جاكارتا او مكسيكو ، وتبادل الحديث مع مهندسين زراعيين شبان من « مديرية التحرير » بين القاهرة والاسكندرية ومع عمال اسوان في صعيد مصر .

وبودي بادىء ذي بدء ان اتكلم عما علمتني اياه هذه التجربة مع الشبيبة على صعيد المعمورة بأسرها ، لا بصدد اولادي وطلابي فحسب، بل أيضا بصدد تاريخنا القريب ، التاريخ الذي هو في سبيله الى ان يتم ، تاريخ المستقبل .

واذا ما ربطنا بين الاستجوابات والتحديات ، بين المسارات ومشاعر الغضب ، بين مظاهر اليأس والصراعات ، مهما تكن متنوعة ومهما تكن التناقضات عميقة ، فاننا لنستطيع ـ انا واثق من ذلك اليوم ـ ان نستشف مستقبلنا الذي يوشك ان يولد : فانا واثق من ان معالم الاختيار الكبير ترتسم من الان في افلاس حضارتنا ، واحيانا في افلاس ثوراتنا .

هذا بشرط ان نعرف كيف نسمع ، فيما وراء الصراخ ، ما تدينه هذه الشبيبة وما تبشر به .

* * *

ان المشكلات التي يطرحها تحدي الشبيبة مشكلات مستجدة . وفع وسع المرء ان يطمئن الى انه لن يفهم شيئا اذا حاول تهدئة روعه بقوله بينه وبين نفسه : لقد وجد الشباب دوما .. ولقد كنا نحن ايضا شبانا تمردنا على اهلنا .. وما الى ذلك .

وحتى نستوعب اهمية ما يحدث ، يجب ان ندرك ان الانسان البالغ من العمر اليوم سبعين عاما قد ولد في منتصف التاريخ الانساني : فقد حدث من الاشياء منذ ولادته بقدر ما حدث منذ الستة آلاف عام من التاريخ المكتوب .

واذا لم يدرك هذا السيد ذلك ، او اذا اعتقد ان المسألة محض مزحة ، فترحى له : فهو يجازف ، هو الذي ولد في مستهل القرن العشرين ، بأن ينتمي الى عالم مغاير لعالم احفاده الذين ولدوا في اواسط هذا القرن العشرين نفسه ، والذين تناهز اعمارهم اليوم العشرين او ما يزيد بقليل ، والذين هم في الحقيقة ،بحكم التسارع المباغت في وتيرة التاريخ ، بدائيو حضارة ستبلغ سن الرشد في نهاية القرن .

ان الانقلاب المباغت الذي انطلقت شرارته منذ منتصف القرن العشرين ، والموسوم بتطور الناظمة الآلية Ordinateur والطاقة الذرية والتلفزيون ، غير قابل لان يقاس بالانقلاب الذي احدثه ظهور الالة البخارية في نهاية القرن الثامن عشر او ظهور المطبعة في عصر النهضة .

ان الانقلابات الوحيدة المماثلة في سعتها لانقلاب عصرنا قد تكون تلك التي دشنت ، بين الالف السادس والثالث ق. م ، ميلاد الحضارة واعني بها اكتشاف الزراعة واختراع الكتابة وما واكبهما من اختراع المحراث والعجلة واكتشاف الملاحة الشراعية والبرونز والحراثة والاقنية والحياة المدينية .

ولم تحدث قط ازمة نمو بمثل هذه الاهمية بين نهاية العصر الحجري المصقول ومنتصف القرن العشرين .

ولنأخذ بعض نقاط الاستدلال حتى نقيس « تغير السرعة » هذا .

لنأخذ اولا سرعة انتقال البشر : فقد كان السادة الاوائل لامبراطورية سومر او فراعنة مصر الاوائل او العشائر الاولى في سهوب مونغوليا يتنقلون قبل خمسة الاف او ستة الاف عام بنفس سرعة الاسكندر أو قيصر او نابليون : فقد كانت الوتيرة وتيرة الخيول وابدالها (2) ولم تضاعف السكة الحديدية في القر التاسع عشر هذه السرعة الا ثلاث او اربع مرات . ولم يطرأ تغيير جذري الا مع الطيران الاسرع من الصوت ، والا مع الصواريخ المأهولة بوجه خاص .

ولنأخذ ميدانا ذا اهمية أكبر أيضا : ميدان تغذية البشر . فنسبة السكان الزراعيين الضروريين لاطعام المدن لم تتغير الا على نحو لايذكر طوال آلوف الاعوام . وفي مطلع القرن العشرين كانت تزيد ٥٠ ٪ حتى في البلدان المتطورة . ولم تتدن الى ١٥ ٪ في فرنسا ، والى ٧ / في الولايات المتحدة ، الا في النصف الثاني من القرن العشرين .

وفي حين أن الانتاج الاجمالي للسلع والخدمات لم يتبدل طوال آلوف السنين الا بنسبة ٣ أو ٤ ٪ في القرن الواحد أو حتى بنسبة ٢٠ الى ٣٠ ٪ بعيد الثورة الصناعية الاولى ، فانه يتضاعف الآن في الاقطار المتطورة مرة كل خمسة عشر عاما ، بحيث أن المجتمع بات ينتج بزيادة اثنين وثلاثين ضعفا عند بلوغ المرء سن الشيخوخة قياسا الى حجم الانتاج في عام ميلاده .

وتطور المعارف أشد بهرا أيضا . فثمة تقرير مشهور لليونسكو يفيد بأن ٩٠ ٪ من العلماء الذين عاشوا منذ بداية الحضارة هم أحياء اليوم. وكتب واحد من خيرة الاختصاصيين العالميين في البرامج المدرسية المبثوثة اذاعيا وتلفزيونيا يقول : «قياسا الى الوتيرة التي تتطور بها المعرفة ، فان جملة معارف البشرية ستكون أكبر بأربع مرات حين يتخرج من الجامعة الطفل الذي يولد اليوم . وحين سيناهز الخمسين من العمر ،سيكون ٩٧ ٪ مما سيعرفه قد تم اكتشافه منذ ولادته » .

والانقلاب الذي رافق اختراع التلفزيون لا يضارعه الا الانقلاب الذي ترتب على اكتشاف الكتابة . فالتلفزيون لم يدخل تبدلا كميا على

---

(1) جماعة من الكهنة ، اختارت ان تعمل ، بلا ثوب كهنوتي ،في المصانع الى جانب العمال . « المعرب »

(2) الابدال : خيول معدة سلفا ، لاراحة خيول متعبة . « المعرب »

نشر الثقافة كمافعلت المطبعة فحسب ، بل أدخل تبدلا نوعيا علىمضمون الثقافة بالذات . ان العصر التاريخي الذي كانت فيه الكتابة الوسيط الوحيد بين الانسان والعالم قد طويت صفحته ، وبات في مستطاعنا اليوم أن نرى ونسمع العالم فاطبة دونما وساطة الاشارة والرمز ،وأن نكون حاضرين في كل مكان من المعمورة في آن واحد . وهكذا يتاح للاطفال والشبان أنيكونوا على اتصال مباشر بمشاهد من الحياةوبنماذج من السلوك تشغل في تجربتهم حيزا اهم بما لا يقاس من الحيز الذي تشغله الاسرة أو الكنيسة أو المدرسة .

وهكذا ، فان « سرعة طواف » الحضارة ، التي ظلت شبه ثابتة طوال سنة الاف عام ، تتخطى على حين بغتة عتبة جديدة في مختلف المجالات في منتصف القرن العشرين .

وقد ولد الجيل الشاب الراهن في تلك اللحظة من انعطاف التاريخ : ومشكلاته ليست بمشكلات اي جيل سابق ، ولا حتى بمشكلاتنا يوم كنا في العشرين من العمر .

فكيف يمكن ، والحالة هذه ، أن تأخذنا الدهشة اذا كان رد فعله الاول رفضا شاملا لاجوبتنا المعدة سلفا ولمؤسساتنا وقيمنا ؟ ولعله من الاجدى لنا ، بدلا من ان نغتاظ من هذا الرفض ، انتساءل عما اذا كانت أجوبتنا ما تزال مطابقة لهذه الاسئلة المستجدة ، وعما اذا كانت مؤسساتنا ما تزال متكيفة مع المهام الجديدة ، وعما اذا كانت « قيمنا » ما تزال جديرة بأن ندافع عنها او عما اذا كانت الحياة قد تجاوزتها . ولنعترف للشبيبة بهذا الجميل : فلقد وعينا، بفضل عنف ردود افعالها ، ضرورة وضع مجمل نمط حياتنا موضع تساؤل من قبلنا نحن ايضا .

والمؤسسات الاقدم عهدا هي الموضوعة اليوم موضعالاستجواب الاكثر جذرية : الاسرة ، الكنيسة ، الدولة ، المدرسة ، مفاهيم العمل والملكية والسياسة والاخلاق والثقافة والفنون .

ولنحاول بادىء ذي بدء ، من دون ان نصدر حكم قيمة ، ان نصف الطريقة التي تتصور بها الشبيبة هذا كله وتحياه .

١ ـ ما تفضحه

ان الاهل رمز انتقال نماذج السلوك . وعليه ، فالنفي الاول هو نفي الاسرة . والتمرد الاول انما هو موجه ضدها .

يكشف استبار قام به المعهد الفرنسي للرأي العام الستار عن هذه الحقيقة القاسية : ان ٧٪ من الاشخاص الذين طرح عليهم السؤال يجهلون ما اذا كان آباؤهم وامهاتهم ما يزالون على قيد الحياة .

وردا على السؤال الذي طرح على حوالي خمسة الاف فتىوفتاة من اتتعليم التقني او من الطلاب الذين تتراوح اعمارهم بينالرابعة عشرة والعشرين : « هل تفضلون ان تمضوا قسطا من عطلتكم الصيفية في العمل من أجل اوقات فراغكم ام ان تطلبوا المال من اسرتكم ؟»، اجاب ٨٥٪ : « نفضل العمل » . وذلك للابتعاد عن اسرهم ،وللاحتكاك بوسط مغاير ، ولانفاق ذلك المال بحرية على اوقات فراغهم في آن واحد .

لقد افرغت الاسرة في الاقطار الصناعية شيئا فشيئا من محتواها : فهي لم تعد وحدة عمل كما في المجتمعات الزراعية او الحرفية . ولم تعد مركز تربية تقنية او اخلاقية . اما بصفتها وحدة سكن ووحدة استهلاك فهي لم تعد تمثل فينظرالشبيبة«قيمة»، وكم بالاحرى سلطة . وانتلاحم القديم الذي كان قد امكن الوصول اليه بفضل التقاليد ، ثم بفضل المال ، ثم بحكم القانون ،ماعادت الشبيبة تحيا الا في شكل قمع لا مسوغ حياتيا له .

وما ارتفاع نسبة الطلاق بين الشبان ( ٤٠٪ طلقوا في العام الاول من الزواج في جامعات كاليفورنيا ) الا وجه آخر للظاهرة نفسها : فالاستقرار الزوجي والوفاء مدى الحياة يبدوان لهم عادة باليسة ومفقرة في سياق التحول المتواصل لمجمل شروط الوجود ومشكلاته. ويرى هذا الجيل في الغيرة علامة تملك اكثر مما يرى فيها علامة حب . والاسرة لم تعد تلك الرابطة المتميزة الاثيرة . وانه لامر له دلالته ان يكون حب المحارم ، تلك الخطيئة الخطيرة في جميع المجتمعات التقليدية ابتداء من أوديب وحتى اواسط القرن العشرين ، قد انتهى بقهقهة مدوية في فيلم لوي مال « القلب اللاهث » (١) .

وفي مثل هذه الحال يصبح الجنس ، خارج سياق الاسرة التقليدي ، بلا حماية . ولقد اماط فرويد اللثام ، ابتداء منالنصف الاول من قرننا ، عن الدور الذي يلعبه قمع الجنس في تنظيم الحضارة بأسرها . ورفض الحضارة في مجملها يشدد اللهجة على رفض المحرمات الجنسية . والجسد هو الذي تمرد أولا ، ثم افتفى العقل أثره في تمرده .

ومن اللغو الباطل اتهام حبوب منع الحمل بأنها هي التيتسببت في الفوضى الجنسية . فهي قد سلطت الضوء فقط على هشاشة « الاخلاق » المبنية على الخوف من النتائج الاقتصادية او الاجتماعية لافعالنا . أما المجادلات الدينية والاخلاقية والسياسية التي كانتتدور قبل عشرة أعوام حول التحديد الواعي للنسل فهي تبدو للفتى أو للفتاة البالغين من العمر العشرين في عام ١٩٧٢ مجادلات لا تقلعقما ولغوا عن الخصومات البيزنطية بصدد جنس الملائكة .

ان الشبيبة ، حين ترفض الاندماج بنظام تلانتاج والاستهلاك يفتقر الى الغائية الانسانية ، لا تطالب كما كان يطالب برغسون ب « علاوة روحية » ، بل تطالب على العكس ، حتى تفجر المجتمعات التي تتحكم بها متطلبات مجردة ، لا انسانية ، كمتطلبات النمو للنمو والتقنية للتقنية ، أقول : تطالب بجسد وبنهاية ثنائية الروح والجسد التي هي في آن واحد رمز وتبرير لجميع اشكال الثنائيات الاخرى ولجميع انواع القمع الاخرى .

* * *

ان تطلع الشبيبة هذا الى مقاطعة النظام وتجاوزه لا يتجلىباعظم الوضوح كما يتجلىفي معارضة الجامعة ومعارضة المدرسة بوجه عام.

ولقد كان عام ١٩٦٨ هو العام المشهود لهذا الاحتجاج ولهذه الآمال . ولكن الازمة بدأت قبل ١٩٦٨ . ونظرا الى ان اي مشكلة ـ في أي قطر ـ لم تحل في ذلك العام ، فان الازمة ظلت مفتوحة بالرغم من خيبات الامل واعمال القمع .

ان كل مدرس ، على اي مستوى ، يستطيع ان يشهد على أنه يلاقيصعوبات متزايدة ، وعلى ان مهمته قد تصبح مستحيلة تماما في مستقبل قريب او بعيد .

وليست الجامعة هي وحدها التي وضعت في قفص الاتهام،وانما النظام المدرسي في مجمله . فالشبيبة تتساءل عن مضمون المعرفة والثقافة وقيمتها ، عن الدور الاجتماعي للتعليم ، عن بنى المؤسسة الجامعية والمدرسية .

والصبوات على هذه المستويات الثلاثة مبهمة في تعبيرها ،ولكن اتجاهها العميق لا يقبل التباسا .

وسوف نكتفي ههنا برسم الخطوط العريضة البارزة لهذا النقد الجذري .

* * *

ان تشكيك الشبيبة في مضمون وقيمة المعرفة التي تلقن اياها يبدأ مع الشك الذي يزرعه فيها عدد معين من الاساطير الضرورية للحفاظ على الاوضاع القائمة .

---

(١) فيلم فرنسي أنتج عام ١٩٧١ ويدور حول علاقة ابن بأمه .

ولو محصنا الادب « المعارض » سواء أكان ادب جامعة نانتير ام السوربون في عام ١٩٦٨ ، أدب برلين أم طوكيو أم بيركلي أمأمريكا اللاتينية أم ايطاليا ، لوجدنا ان الموضوعة الغالبة فيه هي ان المعرفة التي تقدم للشبيبة تخفي الواقع بدلا من ان تكشفه .

و « العلوم الانسانية » من هذه الزاوية نموذجية . فالاهتمام بتمويه كل أثر للتناقض في مجتمعاتنا يتطرف في هذه العلوم الى أقصى مداه . وقد أعلن طلاب علم الاجتماع في جامعة أمستردام في عام ١٩٦٨ عن محاضرة بعنوان : « هل ينبغي ان يكون علم الاجتماع علما انسانيا ؟ » . وكان رأيهم ان علم الاجتماع والاقتصاد السياسي وعلم النفس ليست علوما انسانية اذا ما أخذت بعين الاعتبارالطريقة التي تدرس بها على وجه العموم في الجامعات وانما هي محض توابع فقيرة لعلوم الطبيعة . فعلماء الاجتماع وعلماء النفس ينظرون بوجه عام الى الكائنات الانسانية نظرتهم الى مستمعرة من الجرذان في محاولتهم تحديد سلوكها وقياسه . وكل ما هنالك ان درجة اعلى من التركيب او التعقيد تبرز على مستوى المجتمعات الانسانية او الافراد الانسانيين . وعليه فان العلوم المسماة ب « الانسانية » تستخدم نفس منهج علوم الطبيعة ولها بوجه خاص غرضها نفسه : التحكم بالظاهرات التي هي هنا بشر .

يشير علماء اجتماع نانتير الشباب ، من طلبة واساتذة ، في مذكرة عن الدور الاجتماعي لعلم الاجتماع في عام ١٩٦٨ ، الى أن الغرض الاساسي لعلم الاجتماع الصناعي هو تكييف العامل مع وظيفته ، والى ان علم الاجتماع السياسي يزيف مفهوم السياسة بالذات اذ يركز الابحاث على الاختيار الانتخابي كما لو انه المحرك الحقيقيللحياة السياسية ، والى أن علم الاجتماع المطبق على الدعاية هي تقنية تحكم وتكييف ، والى أن الخطط البوليسية التي أعدها وزير دفاعالولايات المتحدة ، ماكنمارا ، لمكافحة ثوار اميركا اللاتينية تحت اسم «مشروع كاملوت » قدمت للجمهور على أنها « برنامج دراسات سوسيولوجية».

وفي نفس العام طرح علماء النفس الشبان في السوربون سؤالا مماثلا على انفسهم : « هل يمكن لعالم النفس ان يكون أداة « تكيف» أفضل مع نظام استلابي في ذاته ؟ » .

ولا غرو أن تكون حركة ١٩٦٨ في فرنسا قد بدأت على وجه التحديد في قطاعات علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة : فهنا يبرز اكثر من اي مكان آخر أن نفاق « الموضوعية العلمية » المزعومة يفيد في التستر على تقنيات التحكم والتلاعب بالبشر لتسهيل«ادارة» المشاريع وحكم الدول .

ان العلوم الانسانية المفهومة على هذا النحو تؤلف جزءا لايتجزأ من مجتمع قمعي .

وبعد ماخذ حجب الواقع بدلا من كشفه تأتي تهمة تدميرالشخصية بدلا من تطويرها .

أفليس غرض التعليم الراهن دمج الطفل لاعداده لوظيفة في الانتاج او في الدولة ؟ ألا تهدف المدرسة ثم الجامعة الى تاسيسهرم متسلسل من الوظائف والادوار ، والى قولبة وتخصيص كل فرد لكي يصبح نموذج الفرد الذي يحتاجه هذا المجتمع ؟ فكيف تأخذنا الدهشة، والحالة هذه ، اذا ما وجدنا الشبيبة تشعر بالاختناق في هذه الالاف من الصناديق الصغيرة المسبقة الصنع التي يتوجب على كلفرد ان يدلف اليها ويبقى فيها ؟

كيف تنظر الشبيبة الى العلم الذي لا تؤكده الا شهادة تبيح لحاملها أن يحتل مكانه في ذلك الصندوق الصغير وان يتلقى أجرا او راتبا ، وفي حال عمله في الوظيفة العمومية ان يستغلها كما تستغل براءة اختراع ؟ شهادة تخلق أحيانا متقاعدين في سن الخامسة والعشرين ؟ ان هذا العلم لا يبدو نشاطا شخصيا بل بضاعة :فمرتبة الفرد الاجتماعية تقاس غالبا بكمية التعليم الذي استهلكه . وعليه فان العلم اشبه ما يكون بالعملة . وقد حلل ماركس استلاب العامل في المجتمع الطبقي ، وتطور صنمية البضاعة التي هي اساس هذا المجتمع والتي تنعمق وتتفاقم مع الانتقال من البضاعة الى المال ومن المال الى الرأسمال . وشبيبتنا تفضح ظاهرة مماثلة في العلم فهذا العلم هو الاخر علم مستلب ، اي انه ليس عملا خلاقا للانسان ، بل شيء خارجي عن الفرد ومتعال عليه ، لا صلة له بحاجاتهوبتطلعاته الى تفتح شخصي .

ان أحد المطالب الاساسية ضد علم التربية الذي يدمج الشبان بمنطق النظام هو المطالبة ببحث يتم معهم ، بل من قبلهم ، لا من اجلهم .

وأيا تكن أشكال هذا المطلب ، الطوباوية أحيانا ، فانه يتطلعالى نضال ضد لا انسانية العلم واستلابه . وتحت شعار « الجامعة النقدية » يطل الطموح الى تربية تساعد لا على تمويه التناقضات والاستغلالات والاضطهادات ، بل على وعي حقيقة ان النظام الحالي ليس هو النظام الوحيد الممكن ، وليس عالما مغلقا لا منفذ له ،وليس عالما ضروريا لا غنى عنه ، وانما هو على العكس وضع يحد البشر ويقيدهم ، وفي المستطاع تغييره .

أما المأخذ الرئيسي الثالث فهو أن التعليم يتحاشى مشكلة الغايات ، وقد أظهرت الشبيبة على نحو ساطع في عام ١٩٦٨ أنها لا ترضى بالاندماج بأنظمة تعترض على غاياتها وقيمتها ومعناها .

فحين ترفض الشبيبة أن تعد العدة للحرب ، وأن تعمم التلوث، وأن تخدم بلا شروط النمو للنمو والتلاعب بالمستهلك ، فان رفضها هذا ليس رفضا « روسويا » للتقنية ، ولكنه رفض لربط الحياة بالتقنية بدلا من ربط التقنية بالحياة .

ان هذه الشبيبة بطرحها العنيف للسؤال : لماذا ؟ تطرحمشكلة أساسية : مشكلة الانتقال منالتلاعب والتحكم الى تقرير المصير الذاتي .

* * *

ان رسم اشارة الاستفهام حول المدرسة نتيجة منطقية لرسم اشارة الاستفهام حول مضمون العلم : فاذا كان هذا العلم ضروريا للحفاظ على الوضع القائم فما الوظيفة الاجتماعية للمؤسسة التي تعمل على نشره ؟

ان الشاغل الاول لهذه المؤسسة هو حصر كل فرد فياختصاصه، وحمله على المساهمة بأقصى طاقته في المهمة الاساسية ، مهمة زيادة الانتاج والانتاجية . و « الثقافة العامة » التي أطلق عليها بالتوالي اسم « الدين » ثم تعليم ( الانسانيات ) وأحيانا اسم « العلومالانسانية» باتت تلبي حاجة قمعية لا حاجة انتاجية .

ومثل هذا التصور عن الثقافة يفسح المجال واسعا لتأييد نظام فئوي مغلق واخفاء حقيقته .

وللشبيبة مبررها اذا ما شعرت بالانجذاب نحو « ثورة ثقافية » صينية تضع في قفص الاتهام سلطة المتأدب المتنفذ Mandarin الذي يمثل منذ ألفي عام المثقف ومالك الارض والموظف الامبراطوري في آن واحد . وادراك الرابط بين التقاليد الثقافية وبين المحافظة الاجتماعية هو القاسم المشترك بين شبيبة العالم باسره .

* * *

ان رسم علامة الاستفهام حول بنى المدرسة هو بدوره نتيجة محتمة لرسم تلك العلامة حول مضمون العلم والدور الاجتماعيالذي يلعبه .

ويتجلى المظهر الخارجي للمشكلة في أن المؤسسة المدرسية غير متكيفة مع المتطلبات الراهنة . فلقد كانت الوظيفة الوحيدة للجامعة

منذ طويل الآماد صنع الجامعيين . والفيتو الجامعي ينفتح بمنتهــى البطء على الوقائع بحيث أن ٨٠٪ من الطلاب في القطاعات الادبية ان يمارسوا أبدا المهام التي يفترض انه قد تم اعدادهم لها .

ان انعدام « مجالات التصريف » هذا قد لعب دورا هاما فــي صعود حركات التمرد ، مع أنه ليس أسوأ مظاهر المؤسسة .

ان بنية التعليم تنطوي على نفس الطابع الثنائي الذي تنطوي عليه سائر مظاهر المجتمع القمعي ، وترتبط بصلة قربى بالتعبير الاصفى عن ثنائية الحكام والمحكومين : البيروقراطية .

وأوضح مظاهر تلك البنية وأدعاها الى الرفض من جانب الشبيبة صلة القربى بين النظام المدرسي والجامعي وبين نظام طقوس التلقين والتأطير . والغرض واحد دوما : دمج الشبيبة بالمجتمع . والطائفية الكهنوتية ثم المناداة تلعب دوراً مماثلا : فمهمتها ، هــي المؤتمنــة على التقاليد والعلم ، أن تنصب الحواجز وأن تقوم بالفرز والانتقاء. وتقنية طقوس التلقين والتأطير تتشابه الى حد يبعث على القلق مع تقنيـة الجمعيات المقدسة . يقول ماركس : « ما الامتحـان الا المعموديـة البيروقراطية للعلم ، والاعتراف الرسمي بتحول العلم الدنيوي الـى علم قدسي » .

وعن المظهر الطقسي يتولد الطابع الاستبدادي للنظام .

ومطالب الطلبة الجامعيين والثانويين في هذا المجال متماثلة في جميع أقطار العالم : ان يعتبروا ذاتا للتربية لا موضوعا لها ، ان يحل الحوار مع المسؤولين محل الدروس التي تلقى من اعلى المنصة ، أن يحاكموا لا تبعا لنظام من قيم خارجية وبعيدة عن اهتماماتهم وحاجاتهم بل تبعا لمقدرتهم على الابداع والخلق ، أن يستعـاض عن « شـرح النصوص » و « الانشاء » المصطنع بعمل شخصي يشارك الفنـان في فعله الخلاق .

وهنا نصل الى المشكلة المركزية : نقد المدرسة المتموضعة خارج الحياة الواقعية ، الغريبة عن المشكلات الشخصية ، الخارجية عـن الجسد وحاجاته وعن الابداع والخلق ، والنافيـة للبحث المشــوب العاطفة عن الغايات .

هذه الادانة للطابع الثنائي للمدرسة بوصفها مؤسسة منفصلـة عن الحياة تفضي بالضرورة الى نقد سياسي .

* * *

أول ملاحظة تفرض نفسها هنا هي أن الشبية ، في غالبيتهـا ، تقف خارج الاحزاب السياسية ، بل بصورة أعم ، خارج كل تنظيـم مبني على المبدأ الثنائي ، مبدأ تفويض السلطة ، اي استلاب السلطة بين يدي « نائب » في البرلمان أو « ممثل » في الحزب أو في النقابة او في الكنيسة .

ولا مراء في أن الحزب الشيوعي هو أكبر المنظمات تعدادا وامتنها تنظيما في فرنسا . ومع ذلك فان حركة الشبيبة الشيوعية ، تبعــا للتقديرات الاكثر تفاؤلا ، لا تصل الى خمسين الف منتسب . امــا منظمة شبيبة الحزب الحاكم ، « الاتحاد الديموقراطي الجمهوري » فبعيدة غاية البعد عن هذا الرقم . ولا تضم جملة المنظمات السياسية اليسارية واليسارية المتطرفة أكثر من خمسة وعشرين الف مناضل ، ويقل تعداد المنتسبين الى المنظمات اليمينية عن هذا الرقم . وبالاجمال يبلغ عدد الشبان المنظمين سياسيا في فرنسا ما دون المئة الف مـن اصل خمسة ملايين ، أي أقل من ٢٪ . وفي النقابات تتم « الاضرابات الوحشية » ، خارج نطاق رقابة المنظمة في غالب الاحيان ، علـى ايدي الشباب .

ولا يضم « الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين » ( بجناحيه ) عشرين ألف عضو من اصل سبعمئة ألف طالب جامعي . اما المنظمات المنافسة له واليمينية فهي اشد اقفارا أيضا .

ولئن كانت منظمات الشبيبة الكاثوليكية هي الاقوى حتى الامس القريب ، فانها تذوب اليوم كما يذوب الثلج تحت الشمس وتنقسم على نفسها أو تعارض هرمية التسلسل .

هل هذا معناه أن الشبيبة تنصرف عن السياسة ؟ كلا . انمـا هي تنصرف عن تصور معين للسياسة التي يراد ، عن طريق نوع من التفويض الضمني ، أن تمارس باسم الشباب ولكن بدونه . انهـا تنصرف عن تصور وعن ممارسة « ثنائيين » للسياسة تزعم على أساسهما جماعة من القادة . انها تفكر وتقرر بالنيابة عن الجماهير وتحمل اليها الوعي « من الخارج » .

وبالمقابل فان حركة الشبيبة ، ولا سيما في الجامعات ، تطـل دوما ، في جميع ارجاء العالم ، على نضال سياسي . ففي اميركـا اللاتينية ، ومنذ بيان قرطبـــة في عام ١٩١٨ يوم طالب الطـلاب الارجنتينيون لاول مرة بالاستقلال الذاتي لجامعتهم وبحقهم في تسييرها امتدت حركة مقاطعة التصور الابوي والمستبد خلال الاعوام العشـرة الاخيرة الى الاقطار الرئيسية في القارة واكتسبت طابعا سياسيـا . فاستنادا الى الحريات الجامعية الاولى التي تم انتزاعها ثار الطـلاب البوليفيون في عام ١٩٦٤ ، واحتلوا جامعة لاباز شاهرين السلاح . وحين تنظمت حرب الانصار في فينيزويلا في عام ١٩٦٢ لعبت جامعة كاراكاس دور المركز الرئيسي لتجنيد المتطوعين . وفي كوبا شكلـت « الادارة الطلابية الثورية » ، يوم التحرير ، جزءاً من كارتل المنظمات الثورية مع الحزب الشيوعي وحركة ٢٦ تموز التي تزعمها فيـــدل كاسترو .

وفي اليابان تظاهرت الحركة الطلابية في عام ١٩٦٠ احتجاجـا على تجديد المعاهدة مع الولايات المتحدة ، فاضطرت الحكومة الى أن تطلب من ايزنهاور الغاء زيارته لطوكيو بعد ان اقتحم عشرة الاف طالب البرلمان وشارك في الزحف عليه اربعون ألف عضو من حركة زنغاكورن الى جانب ثلاثمئة الف عامل من النقابات ( سوهيو ) . وقد ارتفـع مد الحركة ، مرة ثانية في عام ١٩٦٨ ضد اشتراك اليابان في حـرب فيتنام وضد مشروع تجديد التحالف الاميركي .

اما في الصين حيث انطلقت الحركة الثورية والنضال ضـــد الامبراطورية اليابانية مع التظاهرة الطلابية الهائلة في ٤ أيار ١٩١٩ ، تلك التظاهرة التي كونت جيلا كاملا من المناضلين ( ومنهم ماوتسي تونغ ) ، فقد اقتحم الطلاب من جديد مسرح الحياة السياسية بصورة لم يسبق لها مثيل مع الثورة الثقافيـــة . ففي عام ١٩٦٦ اغلقت الجامعات ، وذاب الطلاب في جماع الشبيبة ، مع الحرس الاحمـر ، وشاركوا في النضال ضد الفئة الحاكمة الجديدة المكونة من بيروقراطية الحزب ، وضد الثنائية المستوحاة من النموذج الستاليني والمتمثلة في جهاز الحزب والدولة الذي يزعم ، على حد التعبير الذي استخدمه لينين حين فضح هذا الانحراف في النظام ، انه يبني الاشتراكيــة من أجل الشعب لا بواسطة الشعب .

وفي ايطاليا اقترن احتلال جامعة تورينو في كانون الاول ١٩٦٧ بتنظيم تعليم مضاد في الكليات رسم اشارة استفهام جذرية حـــول مضمون التعليم العالي . وقد ساهم في الحركة عدد كبير من الطـلاب المسيحيين ، مقتدين بمثال كاميلو توريس ، الكاهن الكولومبي الذي قتل وهو يقاتل مع الثوار الانصار في عام ١٩٦٦ .

وفي اسبانيا لا يشكل الطلاب الجامعيون قوة عددية كبيرة ( فقد كان تعدادهم في عام ١٩٦٥ خمسة وسبعين الفا في شعب يبلـــغ تعداده واحدا وثلاثين مليونا ) . ومع ذلك شكلوا في عام ١٩٦٢ ، ضد المنظمة الرسمية ، منظمتهم السرية : « الاتحاد الجامعي الديموقراطي الاسباني » الذي جرى توسيعه في عام ١٩٦٣ . وفي عام ١٩٦٧ ارتبطت الحركة الطلابية التي يناضل فيها الشيوعيون والكاثوليكيون جنبا الى جنب بـ « اللجان العمالية » ، وباتت تلعب دورا هاما في النضـال ضد دكتاتورية فرانكو .

أما في فرنسا ، وبعد الدور المشرف الذي لعبه « الاتحادالوطني لطلبة فرنسا » في النضال ضد حرب الجزائر ، فقد راح عـــدد المنتسبين يتضاءل ابتداء من عام ١٩٥٢ ، وضعفت الحركـــة بسبـــب القيادات اللامسؤولة . بيد ان النضال ضد حرب فيتنام والغضب على اصلاحات التعليم الرجعية في عام ١٩٦٨ جرفا جمهور الطلاب الىكفاح سياسي فجر أعظم اضراب عرفته فرنسا وشارك فيه تسعة ملايينعامل وموظف . ولقد كانت هذه تجربة هائلة ، وتحليل هذه التجربةيؤلف جزءا أساسيا من دراستنا .

وفي المانيا كانت غالبية الطلاب ، غداة الحرب العالمية الثانيـــة ، يمينية أو سلبية . وحتى في عام ١٩٦٦ كان أكثر من ٨٠٪ ، مـــن الطلاب ما يزالون معادين لفكرة المساهمة في تسيير جامعاتهم . وفي عام ١٩٦٧ رفض نصف الطلاب الاعتراف بحدود الاودر ـ نايس،وكان رأيهم أن النظام البرلمانيالالماني واف بالحاجة .

وقد بدأت الحركة عام ١٩٦٦ في جامعة برلين الحرة . فقـد كانت هذه الجامعة من صنيع الحرب الباردة ، وكانت منسوخـة عن النموذج الاميركي ، ولكنها كانت أكثر قابلية للانثلام من الجـامعات التقليدية .

وفي عام ١٩٦٧ تظاهرت أفواج وأفواج من الطلاب ضد زيارةنائب رئيس الولايات المتحدة ، ثم ضد زيارة شاه ايران . وصرعت الشرطة احد الطلاب . ونظم تروست الصحافة سبرنغر حملة مدروسة لتاليب الرأي العام على الطلاب . واستيقظ الوعي في النفوس بسرعـــة . فقد بدا القمع ، والتلاعب ، والتحكم ، والخضوع للولايات المتحدة المعتدية في فيتنام ، بدا هذا كله على حقيقته كمظاهر مختلفة لنظام واحد : نظام الرأسمالية الالمانية التي سبق أن أنتجت هتلر. واحتل الطلاب مقار صحافة سبرنغر في هامبورغ وكولن وفرانكفورت ومونيخ . وشل توزيع صحف هذا التروست في جميع أرجاء المانيا . وكـان « تحالف بون الكبير » بين الديموقراطيين ـ المسيحيين والاشتراكيين ـ الديموقراطيين يميط اللثام عن زيف نظام الاحزاب والنظامالبرلماني.

لقد لعب الطلاب الالمان دورا هاما في الحركة العالمية للشبيبة ، لانهم أزاحوا الستار على الصعيد النظري عن الخداع البرلماني،ونقلوا النضال السياسي خارج ساحة البرلمان والاحزاب .

ان مسلك الشبيبة السياسي هذا يتسم بسمتين أساسيتيـن أثنتين على الاقل ، بالرغم من تنوع الشروط القومية التي يتجلـى فيها . فتطور حركة الشبيبة خارج نطاق الاطارات التقليدية للتنظيم السياسي هو في حد ذاته دليل على تحول جذري في مفهوم السياسة بالذات : فالتغيير السياسي الحقيقي هو قبل كل شيء تغيير لا للوسائل فحسب بل للغايات المنشودة ايضا ، على اعتبار أن القوى والاحزاب السياسة القائمة تسعى ، على اختلاف اسمائها ، الى تحقيق غايـة واحدة لا غير : النمو الاقتصادي ورفع مستوى الاستهلاك ، وانماختلفت فيما بينها على الوسائل والسبل الى ذلك .

ان الثورة ، كل ثورة ، في التصور التقليدي للسياسة هـي في جوهرها تحويل للسلطة من جماعة الى جماعة أخرى . فلا يكون للفرد فيها من دور الا أن يستلب سلطته ويفوضها الى جهاز له قاسمـــه المشترك مهما تعددت أشكاله : ثنائية الحكام والمحكومين . فالجهازالحاكم يفكر ويقرر باسم الجميع ، ويقصي في الواقع الغالبية العظمى مـن السكان عن كل مساهمة فعلية في رسم القرارات واقرارها وفياختيار الغايات المنشودة . وشعار « الديموقراطية المباشرة » انما يعبـر عن رفض هذه الثنائية .

هذا النفي ، هذا الرفض ، هذا التمرد من جانب الشبيبة ـ وهذا الياس ايضا لان سبعة آلاف مراهق بين السابعة عشروالخامسة والعشرين ينتحرون سنويا في فرنسا ـ يزيح النقاب عن عمق أزمـة حضارتنا . وهو يساعدنا على وعي ضرورة اعادة النظر الجذرية فـي نظامنا ومؤسساتنا و « قيمنا » ، وفي غايات مجتمعنا .

ان الشبيبة ترفض على جميع المستويات شرائعنا .

والاهل يتأرجحون بحيرة بين روح تسلطية تكرس القطيعة وبين تسليم ديماغوجي لا يخلق أي رابطة حية بين الجيلين .

والحكومات بدورها تجاور بوجه عام بين خطب التملق وأسلحة القمع .

ولا مهرب من الاحراج : اما قمع لا نهاية له ولا أفق ، واما تغيير جذري ، أي بديل عن حضارتنا لا عن سياستنا فحسب .

وهذا البديل لا يمكن انشاؤه من أجل الشبيبة وبدونها . فليس بعد اليوم منمستقبل يمنح أو ينعم بـه .

وفي تأملنا التمهيدي حول المستقبل ، ينبغي علينا أيضا ، بعد أن حاولنا استشفاف معنى الانتقادات وقياس عمق المشكلة المطروحـــة وجديتها ، أن نتساءل عما اذا لم يكن هناك مستقبل هو رهنالمخاض في تلك المجتمعات المضادة التي ليس لها بعد قوانين مكتوبة والتـــي تتألف من انشقاق قسم هام ـ هو أكثر الاقسام فعالية في غـالب الاحيان ـ ـ من الشبيبة . وهذه لحظة أساسية في تأملنا بصـدد المستقبل وبناء المستقبل ، لان مظاهر النظام السلبية لا تستثير تمردا حقيقيا الا اذا وجد ممكن آخر ، نموذج اخر . فمن هنا على وجـه التحديد يمكن للاقلية أن تشق ثغرة وأن تفتح أفقا ، بايحائها بذلـك الممكن وبرسمها المعالم العريضة لذلك النموذج .

لنفتح صدورنا اذن ، في بداية بحثنا هذا ، للاشاراتوالاتجاهات التي تنم لا عما تفصحه هذه الشبيبة فحسب بل عما تبشر به أيضا .

٢ ـ ما تبشر بـه :

تتجلى في الموسيقى والرقص على سبيل المثال رغبـة فيالتوكيد الحر للذات لا يجوز الخلط بينها وبين النزعات الفردية الذاوية التي شهدتها الاجيال السابقة . والموسيقى والرقص هما الشكلان الاكثـر نموذجية لتلك « الثقافة المضادة » ، لذلك الاحتجاج على النزعـة التعقلية الشكلية المميزة للتعليم الرسمي الذي لا تلعب فيه الفنـون والتعبير المبدع عن الذات غير دور تافه .

وبغض النظر عن كل حكم قيمة على نوعية هذه الموسيقى وهـذا الرقص ( هذه مشكلة أخرى سنعالجها في مكان آخر (١) ) ، فثمـة سمات ثلاث يمكن استخلاصها من شغف الشبيبة هذا .

فالشبيبة ، أولا ، ما عادت تعد الموسيقى أو الرقص فرجـة يتمتع بها المرء سلبيا . فالمساهمة فيهما مباشرة وفورية . تبـــدأ الموسيقى أو الاغنية ، فيرهف الراشدون السمع ، أما الشبيبة فتأخذ بالحركة ، وكأنها تحيي احتفالا ديونيسيا مشتركا . والفنون ، بعـد ذلك ، شكل من أشكال الانعتاق من دوامة النشاطات النفعية . فقد لا يكون « البوب آرت » الا رغبة في سلخ الاشياء عن دلالتها الوظيفية. وحتى اذا لم يكن فنا ، فانه على الاقل اخلاق ، موقف من الحياة ، توكيد على أن ثمة حياة أخرى ممكنة ، على أن ثمة مجتمعا آخر ممكـن الى جانب المجتمع القائم ، بانتظار اليوم الذي يمكن فيهاستبداله .

هذه الموسيقى وهذا الرقص هما من الفنون التي لا تخضعلسيطرة الكلمات ولا لمنطق الكلام . وبخلاف الحضارة الغربية التي قدمت على الدوام النشاطات العقلية الخالصة على هذا البعـد الجمالي ، أي المحسوس بشكل مباشر ، لعلاقتنا بالعالم ، تضع الشعوب اللاغربيـة البعد الجمالي في مكان الصدارة . وهذا هو احد الاسباب الاساسيـة لانجذاب الشبيبة نحو الهند أو نحو البوذية الزرادشتية أو نحـــو الجاز الافريقي المنابع .

وعلى هذا الصعيد أيضا نجد أن الغايات هي الموضوعة موضـع

---

(١) في مؤلف رهن الاعداد : « ديونيسوس « دراسة في معنـى الرقص الحديث » .

استفهام ف « الفهم » بالنسبة الى الانسان الغربي هو ، تقليديا ، التفسير بالكلمات .. وذلكم هو مصدر جميع أشكال سوء التفاهم الجمالي . فالغربي يساوره الاعتقاد بسهولة بانه قد « فهم» اللوحة بمجرد أن يصف له دليل المتحف موضوعها ، اي كل ما هو ليس برسم في الرسم . « انني لا أفهم بيكاسو ... » . ولكن ما حاجة الفنان في هذه الحال الى أن يرسم اذا كان ما يريد التعبير عنه قابلا للتفسير بالكلمات ؟ أفليس الاجدر به أن يحترف الفلسفة أو التاريخ أو الوعظ ؟

ولا ينبغي أن نخفي على انفسنا أننا نواجه ههنا تعارضا جوهريا بين تصورين عن معرفة العالم . وهذا في الحق واحد من الميادين التي يمكن ان يجري فيها حوار حقيقي عظيم الخصوبة بين الحضارات للتغلب على ذلك التعارض ولعدم التهوين من شان البعد الجمالي والبعد المنطقي على حد سواء لمعرفتنا وثقافتنا ، من شأن العقلانية الهيغلية و « طاو » اللاوتسية على حد سواء . وليست سلسلة من المصادفات التاريخية هي التي جعلت نضال الزنوج في الولايات المتحدة يلعب دورا حاسم الاهمية في يقظة الشبيبة ، وجعلت من تاييد حرب تحرير الشعب الفيتنامي القاسم المشترك بين الشبيبة في العالم قاطبة ، وجعلت الرقص والغناء والفنون الافريقية تلقى اقبالا متزايدا ،وجعلت الهند تمارس جاذبية جديدة ، وجعلت اليوغا والبوذية الزرداشتية تعرفان انتشارا لا سابق له ، وجعلت الثورة الثقافية الصينية تلعب دورا تعبويا نموذجيا ، وجعلت أبطال الشبيبة ، ماو ولومومبا وغيفارا وأنجيلا ديفيس ، من المنتمين الى العالم اللاغربي جميعا .

ان نضال الشعوب المستعمرة او المضطهدة منذ طويل الآماد يشكل، من خلال تجسيم مضخم ، المطلب المشترك للشبيبة في العالم قاطبة . فالشبيبة تطالب ، كتلك الشعوب ، بألا تعامل كما تعامل الاشياء وبان تؤكد شخصيتها الخاصة ضد كل محاولة لدمجها بنظام خارجي، اضطهادي، قمعي .

واتجاه الشبيبة الى اعادة الاعتبار الى المحسوس والمباشر أمارة غنية من امارات المستقبل . . ولا مراء في أن هذا الاتجاه يقترن في بعض الاحيان بالرغبة في اهاجة شدة الادراك الحسي ولو بصورة صناعية عن طريق المخدر . فالمخدر بات بمثابة تأجيج للتجربة الجمالية وعرف مديح بودلير للحشيش ولفضائله في استثارة الهلوسة رواجا كبيرا . فالماريجوانا تؤجج احساسات الالوان والاصوات والعطور. والمسالكين او الـ « ل. س. د » يحدثان المفعول نفسه ، ولكن بمزيد من الضرر . وهذا الشعور بالخفة والغبطة يخلق الاوهام .وقد أثبت السرياليون بالتجربة ، منذ نصف قرن من الزمن، ان الكتابة الآلية الشاعر طريقة ابداعية خصبة ، ولكن الكتابة الآلية لا تعطي غير نتائج تافهة لدى الشخص اللاموهوب . فالشعر ليس أرضا أجنبية جاهزة للاكتشاف بعد اقتحامها عنوة . كذلك لا يكفي المرء أن يحدث « خللا تاما شاملا في حواسه كافة » كي يصبح رامبو . وعليه ،فان استعمال المخدر كوسيلة للتحرر من الحدود وللتعبير الكامل عن الذات وهم من اوهام ميثولوجيا العفوية .ولا مراء في قيمة العفوية من حيث انها تمثل قطيعة ازاء كل ادعاء يزعم بانه يحمل للانسان حقيقته وسعادته « من الخارج » ، ومن حيث أنها تعيد الى المحسوس والمباشر قوتهما وحيويتهما ضد منطق نظام مفلس ، وتبشر بشكل جديد من العلاقات بين البشر .

ولكن العفوية المكررة لا تعود عفوية ، بل نقيض العفوية :فالاثارة المتكررة للاحساس تثلم الحساسية وتنهكها . و « الاسفار » التي يدعونا المخدر الى القيام بها مهددة بان تكون فقيرة ومتوحدة على نحو متعاظم. ولكن الشيء الاساسي الذي لا سبيل الى انكاره هو أن هذه «الاسفار» تمثل مظهرا من مظاهر رفض مجتمع تستحيل فيه الحياة ووسيلة للهرب منه . ان المدمن على المخدرات ليس جانحا بل هو انسان مريض.ومنشأ مرضه اجتماعي .

وحتى لا نكون من الفريسيين في هذا الموضوع يجب أن نعيد الى الاذهان أن المدمنين على أشد انواع المخدرات ضررا وأذى ( وأغلاها ثمنا ) ، كالهيروئين ، لا يقتصر أمرهم على الشبيبة ، بل نحن نصادفهم أيضا ـ وبوجه خاص ـ لدى الراشدين والشيوخ . ولا بأس أن نذكر أن المستفيدين من هذه التجارة اللامشروعة ، المنظمة على نطاق عالمي في شبكات في غاية القوة ، هم بوجه عام على قدر كبير من «النضج» ولهم شركاء كبار متواطئون في أجهزة ليست في متناول الشبيبة . واذا كان من الضروري معاقبة المذنبين ، يجب البدء لا بالشبيبة وانما بالنظام الذي يولد تلك التجارة ويغض الطرف عنها .

وليس في المستطاع وضع حد فعلي لاستعمال الوسائل التي تتيح للمرء أن يهرب من العالم الا اذا خلق عالم لا يولد الرغبة في الهرب.

* * *

نصل هنا الى حدود المشكلة الدينية . والحق أنها تنطرح اليوم بحدة متزايدة بالنسبة الى الشبيبة ، ولا سيما ان الكنيسة كانت طول الف عام في الغرب مديرة عمليات الهرب الكبيرة وصانعة المبررات « الروحية » لجميع الثنائيات ، بدء من ثنائية الروح والجسد الى ثنائية الطبقات والسيطرة السياسية .

ولا غرو ان تكون حركة المعارضة والنقض قد زعزعت أركان الكنيسة أكثر مما زعزعت اركان اي مؤسسة أخرى موروثة عن الماضي. زعزعتها في أساساتها بالذات ، لان الشبيبة كانت الخميرة ، ثم تلتها في التحرك تدريجيا الجماهير الغفيرة .

لقد شنت الشبيبة هجوما عنيفا على الثنائية في تنظيم الكنيسة الداخلي ، موجهة التحدي الى كل ما يمكن ان يجعل من الكنيسة جسما منفصلا في المجتمع ، خارجيا عنه ومتعاليا عليه . وهذا لا يتجلى في ما تصطدم به الكنيسة الكاثوليكية من صعوبات متعاظمة في تجنيد الشبان وتاهيلهم للكهنوت في المدارس الاكليريكية حتى ان بعض الرهبانيات ( المذكرة أو المؤنثة ) اضطرت الى اغلاق أديرتها بسبب ندرة المرشحين للدعوة الربانية فحسب ، بل يتجلى ايضا في المطالبة المتعاظمة باندماج فعلي بين الكنيسة وبين العالم ومشكلاته . ولقد كان الكهنة ـ العمال رواد حركة لا يمكن أن تتقهقر الى الوراء بعد اليوم، حين رفضوا الفصل بين العمل والايمان ، بين الكهنوت والحياة العمالية ، حياة عمالية معترف بها في جميع ابعادها : لا بوصفها بؤسا نشاطرها اياه فحسب ، بل أيضا بوصفها كفاحا مناضلا .ومشكلة عزوبة الكهنة والراهبات لم تعد اليوم غير مظهر من مظاهر تلك الرغبة في دمج الكنيسة بالحياة كامل الدمج وفي ممارسة الايمان ضمن نطاق الحياة بأبعادها كافة لا خارج الحياة . وما تشديد اللهجة في الكنيسة الكاثوليكية على « رسالة العلمانيين » وعلى امكانية رسم الكهنة من بين الرجال المتزوجين والنساء الا حالة خاصة من ذلك الرفض للثنائيات طرا .

ان هذا التيار العميق غير القابل للارتكاس هو الاخر يعبر عن نفسه ايضا في التاليف المذهبي ، في اللاهوت بالذات . وليسوا قلة بين الشبيبة المسيحية في اميركا اللاتينية أولئك الذين يرون صلة لا تني تتوثق بين فكرة البعث والقيامة وبين الثورة . وانه لامر له دلالته أن يحمل كتاب الاب كومبلان ، الشاهد على تلك الوضعية النفسية، هذا العنوان : « لاهوت الثورة » .

وفي بلدان العالم الثالث قام جناح هام من جميع الاديان بربط نفسه بحركات التحرر القومي : لا في اميركا اللاتينية فحسب ، بل ايضا في افريقية في شكل حركات تنبؤية ورسلية ، ولدى الشبان المسلمين الذين ارتبط لديهم الاسلام ، في الجزائر على سبيل المثال، بحركة التحرر القومي ، مثلهم في ذلك مثل الكهنة البوذيين في فيتنام اليوم . ولقد تاثرت أكثر ما تاثرت حين استمعت في بانكوك ، في

معبد وات ـ فو ، الى راهب بوذي شاب ( هذه البوذية التي كانت على مر الزمن اكثر الاديان ثنائية واشدها حرصا على صرف اهتمام الانسان عن الارض ) ، وهو يكلمني ، بحمية نضالية مذهلة ، عن الالتفات لا نحو عالم آخر ولا نحو الماضي وانما نحو المستقبل لتغيير العالم.

ان الشبيبة تواجه ، في الكنائس المسيحية ، ثقل الماضي الرهيب: ثنائية الروح والجسد ، وستتبعاتها الافلاطونية ، عن خلود الروح ، والميل على حد تعبير الاب تيار دي شاردان الى الافتراض بان الجسد والحياة الجنسية ملوثان بما لست أدري من دنس . ولهذه الثنائية ترجمتها السياسية والاجتماعية الفورية : فبحجة أولوية « الروح » يفضل النظام المصطف الى جانبها على الثورة المدموغة بالفوضوية و « المادية » .

وضد هذا كله يعبر الاتجاه الاساسي الذي ترتسم معالمه في الشبيبة، على نحو جذري الجدة ، عن واحد من أعمق تيارات المسيحية ، التيار الذي يشدد اللهجة على ما يسميه اللاهوتيون بعلم الاخرويات ، أي الرجاء المسيحي .

بيد أن هذا التيار يمثل ، فيما وراء مظهره اللاهوتي المحض وبتجاوز حدود الشبيبة المسيحية ، طريقة جديدة في عيش علاقة الانسان بالعالم وعلاقات البشر فيما بينهم .

ونظرا الى عدم توفر مصطلح أنسب ، سنصفه بانه « ديونيسي». اولا لاننا نلمح بذلك الى رؤية نيتشه الذي يلهم ، عن وعي او لا وعي ، عددا كبيرا من مبادرات الشبيبة المعاصرة .

ان ابولون ، الذي يجسد المثل الاعلى للفكر الاغريقي الكلاسيكي ، هو معلم العقل والانضباط والتوازن والحكمة الاغريقية النموذجية ، الحكمة التي تدين بالشطط كل محاولة لتجاوز حدود الانسان .ابولون هو ملكوت القانون والنظام . ونموذج الفعل الابولوني هو فعل النحات، أي الفنان الذي يبني كل شيء تبعا للقانون متقيدا بالنظام الذي شاءته الآلهة .

اما نموذج الفعل الديونيسي فهو فعل الراقص . الراقص بوصفه الصورة المجازية للحياة المفهومة على أنها فيض متدفق يخترقنا ويتعدى التعبير عنه قدرة الكلمات ، لا المفهومة على أنها نظام علائي ينبغي تقليده بالعمل . الرقص بوصفه انبثاقا متجددا للوحدة الاولى بين الانسان والطبيعة قبل كل حضارة ، تلك الوحدة التي عاودت ظهورها في التاريخ في شكل ثورات في كل مرة تم فيها اختراق الحدود التقليدية: في المذاهب الصوفية والثورات ، في الطوباويات والهلوسات .

ان الاله الاريسطوطاليسي المسن ، المحرك الثابت ،الرب البارد، قد مات . واني لاشك كل الشك في أن الشبيبة يحلو لها أن تمثل دور النادبة في جنازته . فالاله الوحيد الممكن تصوره بالنسبة اليها والقابل للحياة ، بعد ماركس ونيتشه وفرويد ، في عصر الجوهر فيه صيرورة ، والكتلة طاقة . والكينونة علاقة ، هو القوة الخلاقة الكامنة في قلب كل شيء . فالله موجود حيث وجد شيء جديد في سبيله الى الولادة في ابداع فن من الفنون او في اكتشاف علمي أو في حب أو في ثورة . ان الله هو نقيض القصور (1) . ولئن كان

(1) المقصود ههنا قصور الطاقة المنحطة ، العاجزة عن توليد عمقل . « المعرب »


دار الآداب تقدم

يوسف شرورو

الحزن يموت أيضًا

رواية

ماساة الانسان الفلسطيني في الوطن العربي ...

صدرت حديثا ٦٠٠ ق. ل.

# ويهبط الموت الى غزة

ذبحتني امس بريش الحمام
سقيتني الخمر .. رذاذ الغمام
بالورد . غطيتني ..
وكنت لي الشعر .. غرام الغرام

* * *

لا تسألي ..
تلك الحكايا الكثار
عن الدموع المطر ..
والنوم قبل السهر !
انا نشق الحجر
نزرعه الحب ..
وضوء البصر ..
يا ايها الميتون ..
هل تنزفون الدماء ..!
في ثوبنا مخبرون
في خطونا مخبرون
وانكم تعلمون
معنى سكون السكون !

يبكي لديه الغزل
يضحك فيه البكاء
ويهبط الموت الى غزة ..
وانه الحي الذي يحمله الميتون !

* * *

مسحت ريش الحمام
يهفو على الحنجرة ..
بالورد .. كفنتني
غنيتني .. ان انام
ما بين اشعاري .. ونجوى الغرام

* * *

للريشة السكين ..
للوردة القنبلة ..
لو نلتقي بعد حين !

بغـــداد

**زكي الجابر**

القصور قانونا عاما لانحطاط الطاقات ، فان الحياة قد انتصرت عليه من الآن وان بصورة غيرنهائية .وثمة قانون جديد صائر الى الحلول محله، وهذا القانون الجديد الذي قبل بتحدي معاودة صعود المنحدر هو الذي يعطي الحياة معناها وقوتها ويجدد صباها .

ان موقف الشبيبة هذا يوحي بشكل جديد للعلاقات بين البشر : فقد لا يكون ما يجمع بيننا محض مهمة مشتركة ، وانما ايضا انتماء مشترك الى فيض متدفق واحد ، الى نسغ متصاعد واحد :

ان موقف الشبيبة هذا يوحي بموقف جديد من الحياة : تحول مصير الانسان الى قصيدة .

سالني احد الطلاب : ماذا سيحدث اذا رقصنا حياتنا بدلا من ان نبنيها فحسب ؟

ان ما تفضحه الشبيبة هو الثنائية في شتى اشكالها .

والتعارض بين الروح والجسد هو التعبير المباشر والاول عن الثنائية وتلخيص لسائر اشكالها : ثنائية السلطات ــ سلطة الاب ،رب العمل الزعيم ، « القيم » ، الاديان ، الاحزاب ، الطبقات السائدة والبشر المقضي عليهم بدور المنفذين ، هؤلاء البشر الذين تحمل اليهم « الغايات » من الخارج ، في الاخلاق كما في السياسة ، في العمل كما في الادب او الفنون ، والذين لا ينتظر منهم من شيء غير الاندماج بنظام الغايات هذا ، الذي خلق في شروط تاريخية مغايرة بصورة كاملة للشروط الراهنة والذي ما عاد يجيب على اسئلة اليوم ولا يلبي متطلباته .

وما تبشر به الشبيبة هو على وجه التحديد الطابع المستعجل لضرورة طرح مشكلة الغايات على بساط البحث . حتى ولو كانت تفعل ذلك بصورة مشوشة ، فوضوية ، طوباوية ، وبكلمة واحدة: اسطورية . اجل ثمة « اسطورة » عن الشبيبة . ولكن الاساطير لا تولد ابدا عبثا : فهي تخلق حين تبرز حاجة جديدة للانسان وحين لا تجد هذه الحاجة امكانية لتلبيتها في المجتمع القائم .ان الاسطورة تجسيد مسبق . ومن الواجب ان نتعلم كيف نفك لغزها .والاسطورة هي دوما اشارة الى تجاوز . ومن الواجب ان نقرأها لنفهم ما تشير اليه . وهذا الكتاب يقترح محاولة للقراءة ولفك اللغز . يقول مثل بوذي : « حين تشير الاصبع الى القمر ، ينظر الاحمق الى الاصبع ».

انما بدءا من هنا نستطيع ان نبني ، مع الشبيبة ، المستقبل. وما تفتقر اليه هذه الشبيبة هو الذاكرة والامل . والحل الحقيقي لتيهنا الاعمى والفاجع هو الوصول الى حرية تتجاوز الامتثالية والتمرد، هو المجهود المبذول كيما يكون لنا مع هذه الشبيبة تاريخ مشترك وآمال متبادلة .